

مدينة الله والمواطنة الأخلاقية

شريف الدين بن دويه¹

في البدء:

القديس أوغسطين علم من أعلام المفكرين في العصر الوسيط اللاتيني، من مواليد سوق الأخرس "سوق اهراس حاليا عاصر سقوط الإمبراطورية الرومانية، الذي تزامن مع استيلاء القوط الغربيين على روما في عام 410، وقد أثر هذا الحدث على توجيه مسار حياته الروحية، التي مرّت بمرحلتين:

مرحلة الشباب والدراسات والنشاط العادي، وبداية قلقه الفكري والفلسفي، وفيها تأثر بيسيسرون، كما يقول عبد الرحمن بدوي أبلغ تأثير، إذ أوقد في عقله حب الحقيقة الخالدة، والحكمة الدائمة، كما وجد أوغسطين في العقيدة المانوية ما يرضي نوازعه، كما أولع بعلم النجوم ووجد مبررا للردية².

أما المرحلة الثانية فتبدأ بنقد المانوية لعدم اقتناعه بشروحها العلمية، وما قدمته حول علم الفلك إلا أنه احتفظ بعلاقات جيدة مع أسقف المانوية، ثم مرّ بفترة من الشك الواعي، والتي انتهت بأن أصبح راهبا ثم مطرانا، وتكرس كمدافع أول عن الكنيسة المسيحية الغربية، وقد ترك الكثير من المؤلفات، والتي تعكس قوة الفكر، والقدرة الواسعة على الإحاطة بكثير من العلوم، ومنها رسالة في الجميل والملائم، ورسالة في خلود النفس وكتاب ضد الأكاديميين، وفي سفر التكوين، وفي الدين الحق، وكتاب في الموسيقى، وكتاب الاعترافات، مدينة الله، في التثليث، في الطبيعة واللفظ: ضد البيلاجيين، ضد أتباع بيلاجيوس، في اللطف وحرية الإرادة، في البدع³.

ومما يلاحظ أن القديس أوغسطين لم يكن فيلسوفا بالمعنى الدقيق للكلمة، فرسالته التي كان يؤمن بها، وكرس قلبه لها هي الدفاع عن الدين، فقد كان عالم كلام أو متكلم في اصطلاح المسلمين، وبصورة خاصة ضد الدوناتيين⁴ وضد البيلاجيين - أتباع بلاج pelagius ، وهو "

¹ أستاذ مساعد شعبة الفلسفة. كلية العلوم الاجتماعية جامعة د مولاي الطاهر سعيدة الجزائر

² عبد الرحمن بدوي ، موسوعة الفلسفة المؤسسة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1984 ص: 248

³ المرجع نفسه ، ص: 248-249

⁴ أتباع دونات أسقف قرطاجنة

رجل دين ينتمي إلى إقليم ويلز في إنجلترا، وكان مزاجه أقرب إلى الروح الإنسانية من معظم رجال الكنيسة في عصره، رفض فكرة الخطيئة الأولى، وأقرّ بأن الإنسان يمكنه بلوغ الخلاص بجهوده الخاصة إذا اختار أن يحيا حياة فاضلة¹

ولم يكن أوغسطين سياسيا، ولكن بعد سقوط روما اتهمت المسيحية بمسؤولية الكارثة، فإله المسيحية لم يقدر على حمايتها؛ فشمّر، وقرّر الدفاع عن المسيحية، وإبطال حجج الخصوم، فكان ميلاد كتاب مدينة الله الذي يصنّف ضمن اليوتوبيات الدينية والفلسفية للدافع الديني يكمن وراء كتابة المؤلف.

أما البعد الفلسفي فنجده حاضرا من خلال التفكير حول التاريخ، وحول الحاضرة المدينة، فهو كما يقول توشار: "لا يمثّل عقيدة متكاملة، فهو بصورة خاصة توسّط متحمسا لمسيحي روماني السيرة، يتنازعه أمام تفتت الإمبراطورية التي تترنح حياتها بين الضياع والرغبة في مواجهة الواقع، والاطمئنان العميق بأن شيئا سوف ينبثق من الركام"²

وقبل التعرض للمضمون اليوتوبي والأخلاقي لكتاب مدينة الله يجدر بنا التعرض لنظرية أوغسطين في المعرفة، فهي تساعد على بيان فلسفته السياسية والتاريخية، وتجلّي هذه الرؤية في كتاب [ضد الأكاديميين] حيث اجتهد أوغسطين في محاولته تنفيذ حجج الموقف الربوبي، فالحواس أداة وآلة ضرورية لإدراك المعارف، ولا يمكن إقصاءها، ولكنها غير كافية لبلوغ الحقيقة، يقول أوغسطين في [كتاب الموسيقى]: "لا تخضع النفس مطلقا للجسد كما تخضع المادة للعامل. وإذا ما كان الجسد يولّد في النفس بعض الانسجام، عندما نسمع مثلا، فإن ذلك لا يحدث في النفس انسجامات مشتقة كلك التي نسمعها في الأصوات."³

وهي الإشكالية التي كانت موقع صراع بين المدرسة العقلية، والتجريبية، وهي العلاقة بين الإدراك، والإحساس، وإدراك الحقائق عند أوغسطين يتم عبر الحدس الوجداني الذي هو السبيل الرئيس في المعرفة، وأول مرحلة في بناء المعرفة هي معرفة الذات، وعن طريق معرفة الذات نصل إلى الحقيقة⁴، والبحث عن الذات هو حجر الزاوية في بلوغ المعرفة، والتجربة الشخصية التي مر بها القديس أوغسطين دليل على أهمية هذا السبيل، يقول أوغسطين في

¹ برتراند راسل، حكمة الغرب ج1 ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 62/فبراير/ 1983 ص 200:

² جان توشار، المرجع نفسه، ص: 100

³ جان كلود فريس، المرجع نفسه، ص: 89

⁴ عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، دار القلم، بيروت، الطبعة الثالثة 1979 ص: 22:

كتاب الثالث: "كيف تبحث النفس عن ذاتها وتجدها، إنه سؤال مقلق جدا، أين تمتد لتبحث عن ذاتها، ومن أين أتت لتجد ذاتها..؟"¹

معرفة الذات أو إدراك الحقائق الأزلية الأبدية الكامنة في الذات ، وإدراك عللها، والتي هي من جنسها ، فهناك تطابق بين الصور، وعللها، والغرض الذي يقصد إليه هو بيان ارتباط المعاني بالله، والذي يظهر في قوله: "فهناك موجود أزلي أبدي، وهذا الموجود هو الله، والوجود والماهية شيء واحد، ولهذا فإن الماهية التي تتصورها الله في نفوسنا تقتضي الوجود، ففكرة الله الموجودة في نفوسنا تقتضي وجوده أيضا. فالله إذن موجود."²

والتقاطع بين برهان أوغسطين والكوجيتو الديكارتي يبدو واضحاً، أما أصول البعد الأخلاقي في الفلسفة الأوغسطينية، فواضح، ولا يحتاج إلى تعليل، فالله هو مصدر القيم الأخلاقية، و السعادة هي النعيم في الله، ومن أجل الله، ولا شيء غير هذه الحياة يمكن أن يكون سعيداً، فالسعادة والحقيقة شيان مترادفان، فمصدرهما واحد، والمطلب المعرفي عند أوغسطين هو معرفة القانون الأبدي أو قانون الطبيعة الذي يتصف بالثبات، والمطلقة، وهو موجود داخل الجميع، فهو يستمد وجوده وشرعيته من الله، وبالتالي يمكن الاصطلاح عليه بالقانون الإلهي، فالخير هو السير وفق القانون الطبيعي، والشر هو مخالفة هذا القانون، فالخير يملك وجوداً انطولوجياً، بخلاف الشر الذي هو صورة سلبية، فالشر سلب للخير، أي سلب للنظام، والفضائل الأخلاقية تقوم على فضيلة الحب حب الله، والعدالة وسائر القيم تعود إلى الحب.

وقبل التعرض لمدينة الله التي يطرحها أوغسطين، كنموذج بديل ينبغي الإشارة إلى رؤية المسيحية للسياسة عموماً، إذ بدأت الديانة المسيحية في الانتشار في وقت ازدهار الإمبراطورية الرومانية، وقد كانت بداية انتشار المسيحية بين صفوف الطبقات الدنيا في المجتمع التي آمنت بها كنتيجة منطقية لمناداة هذه الديانة بمبدأ المساواة بين كل الناس، ولكن مع مرور الوقت وحين بدأت الإمبراطورية في الضعف، والانهار تدريجياً أخذت المسيحية في الانتشار بين كافة الطبقات، ولكن بعيداً عن الحياة السياسية نتيجة لإيمان آباء الكنيسة الأوائل بضرورة طاعة الحاكم تنفيذاً لوصية السيد المسيح عليه السلام "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

وبقي الوضع كذلك إلى أن اعترف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية، وتزايد دور الكنيسة مع ضعف الإمبراطورية، وتناقصت سلطة الأباطرة بحيث

¹ جان كلود فريس، المرجع نفسه، ص: 98

² عبد الرحمن بدوي، المرجع نفسه، ص: 26

أصبحت سلطة الكنيسة موازية لسلطة الإمبراطورية، فظهرت المسيحية كحركة دينية لها نظامها المستقل عن الدولة، وكانت هي المسؤولة عن النواحي الروحية، تسعى لتخليص الإنسان من الخطيئة، فكانت الدولة مؤسسة مستقلة، تستمد سلطتها من الله، وعليه يصبح من الواجب على الكنيسة الخضوع لسلطتها، و مع تعاظم دور الكنيسة، وتمتعها بسلطة منافسة لسلطة الإمبراطور، طرحت الكنيسة فكرة (الولاء المزدوج) والتي تدور حول وجوب خضوع المسيحي لنوع من الولاء المزدوج انطلاقاً من ازدواج طبيعته، فالإنسان يتكون من روح وجسد والروح تتوجه بالولاء نحو خالقها، والذي تظهر سلطته في الأرض من خلال الكنيسة. أما الجسد فيتوجه بولائه إلى السلطة الدنيوية ممثلة في الحكومة الإمبراطورية، وهكذا خرجت إلى الوجود [نظرية السيفين أو ازدواج السلطة] على أساس وجود نوعين من الوظائف في المجتمع، وظائف خاصة بالقيم الروحية والأخلاقية وتولاها الكنيسة وتراقبها، وظائف تتعلق بالمحافظة على الأمن والنظام، وتحقيق العدالة وتولاها الحكومة، وتكاتب مدينة الله للقديس أوغستين الذي يعتبر من آباء الكنيسة يعكس الفكر السياسي في المسيحية، وهو تكاتب شرع في كتابته سنة 412 وأنهاه في سنة: 427 .

مدينة الله :

القراءة الأولية لعنوان الكتاب توحى بالدلالات والرسائل التي كان يرمي إليها، فمدينة الله تصور يقرن التجمعات السياسية بالمفاهيم اللاهوتية كما أن مدينة الله عبارة تكرر في العهد القديم، والعهد الجديد، وليست تسمية جديدة، ففي سفر المزامير [الإصحاح 46] من العهد القديم وردت عبارة مدينة الله في النص التالي: "نهر سواقيه تفرح مدينة الله، مقدس مساكن العلي.. الله في وسطها ولن تتزعزع " وفي سفر طوبيا من العهد القديم نجد في الإصحاح 12 هذه العبارة: " يا أورشليم مدينة الله إن الرب أدبك بأعمال يديك .." أما في العهد الجديد فقد وردت في رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين: " بل قد أتيتم إلى جبل صهيون، وإلى مدينة الله الحي أورشليم السماوية ... (1)

(1) العهد الجديد، جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى القديم، بيروت 1964 ص 367

فمدينة الله تعبير عن الفلسفة أو الرؤيا المسيحية لحركة التاريخ، وهذا ما يؤكده كانتور في قوله: "فلسفة التاريخ المسيحية تمثلت في كتاب مدينة الله لأوغسطين بشكل أساسي، وربما يكون هو أكبر عمل مؤثر في تاريخ الفكر المسيحي باستثناء الكتاب المقدس".⁽¹⁾

ويتبين لنا أهمية الكتاب في الفكر المسيحي، فالدافع إلى التأليف كان البحث عن سبب مسيحي لسقوط الإمبراطورية الرومانية، ولكن حاسته التاريخية كما يصطلح عليها المؤرخ كانتور دفعته إلى دراسة التدوين التاريخي عند اليونان والرومان، فوجد نفسه ملزما على نقد هذه الأساليب التدوينية للتاريخ.

والنظرة الأوغسطينية لفلسفة التاريخ تقوم على رفض النظرة الدورية لحركة التاريخ وعدم القبول بإمكانية تكرار الحوادث التاريخية، "فتجسد المسيح أي حياته على الأرض كانت حادثا فريدا غير قابل للتكرار أبدا في التاريخ".⁽²⁾، فكتاب مدينة الله لا يُعبر عن وجهة نظر دينية للكون والحياة بل هو نظرة فلسفية تأسيسية للرؤيا التوحيدية المسيحية للكون ولل فرد والتاريخ.

يتألف كتاب مدينة الله من اثنين وعشرين باباً، في الأبواب الأولى، يحاول أن يبرهن على أن ما أصاب روما، من نهب وتعذيب، وأسر ليس غريبا عن التاريخ البشري كله، فهو ابتلاء ابتليت به كسائر الشعوب على مدى قرون من جراء سطوتها، وخطرستها، كما أن مصير الإنسان ليس مقرراً على هذه الأرض، ولا في نطاق حياته الجسدية، ومثل هذه المصائب لا تصيبه في جوهر حياته، ويجب ألا تقوده إلى اليأس: "فالحياة الزمنية دار ابتداء تعد لأبدية، والمصائب ليست للمسيحي غير امتحان وتأديب". إنها وفي الواقع، أداة لتربية إلهية، ففي نظر أوغسطين كل ألم جماعي أو فردي، يجب أن ينظر إليه، أولاً كعقاب صريح على أخطاء جسيمة، إن الألم الذي ينجم عن الحدث، يجب أن يكون لكل فرد مناسبة لتوبة وللتقشف.

وهذا لا يمكن أن يقود المسيحي إلا إلى محاسبة صادقة للذات، فكما كانت الأزمة جسيمة، على الإنسان أن يختار الوجهة المعطاة لوجوده فهل سيكون مواطناً عادياً في مدينة أرضية، يتلصق طريقه في منعطفاتها التاريخية أم في الوقت سيكون أميناً لمدينة الله؟
المواطنة:

(1) نورمان كانتور، التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، الطبعة الخامسة 1997 ص: 117

(2) المرجع نفسه، ص: 121

الدولة كمؤسسة مدنية، وسياسية في المعتقد المسيحي، قائمة على السيطرة والتسلط الممارس من طرف هيئة أو مجموعة أفراد، وهي غريبة على الطبيعة البشرية، نتجت عن الخروج من عالم الملكوت، الذي كان فيه آدم عليه السلام، فالحالة السياسية طبيعة ثانية مرتبطة بالخطيئة والإثم الذي كان وراء الخروج أو الطرد من عالم الملكوت، فالقبول بالسيطرة والسلطة هو تكفير عن الخطيئة، وعن الغرور الناشئ عن الأناية أو حب الذات الذي يحتقر المساواة الطبيعية التي تقرّ بالشراكة الإنسانية، المبنية على دعامة الاشتراك في البنية الخلقية، ووحدة المبدأ، والغاية.

يقول القديس أوغسطين: " لقد أراد الله أن لا يسيطر الكائن العاقل، المخلوق على شاكلته، إلاّ على كائنات غير عاقلة ؛ لقد أراد أن لا يسيطر الإنسان على الإنسان وإثما على الحيوان)، وجميع أشكال السيادة في نظر أوغسطين ستندعم فيما بعد الزمان، أي في مملكة الله، باعتبار أن الله سيكون الكل بالكل (1)

وشرعية السلطات نابعة من فكرة الخطيئة، فكل سلطة قائمة في هذا العالم ينبغي أن تجد، حتى من قبل أولئك الذين هم أفضل منها، وفكرة التوفيق بين سلطة الحاكم الجائر، ومبادئ الله يسميها المزاج العادل، ويستعين أوغسطين بالرمزية القائمة على معطيات تاريخية لتوضيح هذه الحالة، عندما تحدّث عن الجنود المسيحيين لجوليان المرتد، فقد كان هؤلاء يرفضون مدح الأوثان، لكنهم كانوا يقبلون السير للمعركة.

لقد كان هؤلاء يميزون بين سيدهم الأبدي وسيدهم الدنيوي، ومع ذلك فإنهم يطيعون السيد الدنيوي، بغية إرضاء السيد الأبدي (2).

البحث في الأسس السياسية والتنظيمية للمجتمع المدني، مسؤولية المؤمن المسيحي عموماً، ومسؤولية العالم بالأخص، فهي كعقيدة في منظور رجال الدين، قادرة على تحويل المواطنين أحياناً، أو بالأحرى هي التي تملك القدرة على إكساب البشر السعادة الدنيوية، والأخروية، وجميع الديانات تتقاطع في هذا التصور، الذي يكون سبباً كافياً في نشوء المذهبية، والتطرف، واتهام المسيحية بأنها مصدر، وعلّة سقوط الامبراطورية الرومانية تهمة كافية لدفع علماء المسيحية للدفاع، والذب عن عقيدتهم، فهي دعوى واهية في اعتقادهم،

(1) جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر

والتوزيع، بيروت، الطبعة الرابعة 1998 ص: 154

(2) المرجع نفسه، ص: 155

والدليل على ذلك يرجع إلى الوقائع التاريخية، وليس الحجج العقلية، فتاريخ هذه الإمبراطورية تأسس على الحرب، فالماضي الدموي لهذه الإمبراطورية علة السقوط، وليست هي المسيحية . أخذت المواطنة في المجتمع الروماني بعدا قانونيا⁽¹⁾، أصبح فيه الأجانب أو الغرباء ذوي حق في المواطنة، والقديس أوغسطين كفرد بربري - كما كان الرومان يصطلحون على كل غريب، أوكل من ليس رومانيا - من بونة (عنابة حاليا) استطاع أن يحرز على حق المواطنة الرومانية، التي كانت وثنية المعتقد، ونتيجة التحول الروحي الذي عايشه، أصبح يعتقد في المواطنة المزدوجة التي تكون من الناحية السياسية أسلوب ذكي في تجاوز الضغوط التي كانت تمارسها الحكومة الرومانية على المؤمنين المسيحيين وقصة أهل الكهف تسجل المعاناة التي عايشها هؤلاء المؤمنين، فالتعامل مع الرومان في ظل شروط يؤسس لمدينة الأرض، والسعي بالفكر، والسلوك يوصل بالمؤمن إلى عالم الملكوت أو مدينة الله، والأساس الأخلاقي، والميتافيزيقي الذي يعتمده اوغسطين في التأسيس للمواطنة المزدوجة يقوم على مبدأي الخير والشر، فالسعي نحو تلبية الحاجات الحيوية جزء من الطبيعة البشرية لا يمكن إقصاءه، والرغبة في تجاوز هذه الطبيعة من الطبيعة نفسها؛ فالرغبتين المتضادتين تؤسس لمدينتين، مدينة الله التي تقابلها المدينة الأرضية، فجميع المجتمعات البشرية تعود إلى هاتين المدينتين⁽¹⁾

والحجج التي يعتمدها اوغسطين في إثبات هذه الرؤية هي التاريخ، فتاريخ الإنسان السياسي يسير وفق هذه السنة التاريخية، فنذ هبوط آدم إلى اليوم هناك مدينتين، مدينة مع الله، وأخرى مع الشيطان، وينتمي (هايلل) إلى مدينة الله، وقد شاءت رحمة الله، وما خطه في لوح القدر، أن يكون هايلل زائرا على هذه الأرض، على أن يظل منتميا إلى السماء باعتبارها موطنها له، وكذلك ينتمي الآباء الرؤساء إلى مدينة الله⁽²⁾

والانتماء لمدينة من المدينتين حسب أوغسطين أو" ما يجعل الشخص عضوا في مدينة أو أخرى من هاتين المدينتين ليس الجنس، أو الأمة التي يدعي أنها أمته وإنما الغاية التي يسعى إليها، ويخضع لها في النهاية كل أفعاله"⁽³⁾ .

(1) عطيات ابو السعود ، الأمل واليوتوبيا عند مارك بلوخ ، منشأة المعارف، الاسكندرية ، الطبعة الأولى 1997 ص 374

(2) برتراند راسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة، زكي نجيب محمود ، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية 1968 ص 91

³ Saint Augustin 191، La cite de dieu، Édition du seuil، Paris، 1994

المواطنة عند أوغسطين تتقاطع في كثير من النقاط مع مفهوم المواطنة الحديث وإن كانت السياقات التي تحتضن المواطنة مختلفة في غالب الأحوال، فالإقرار بالولاء أو الانتماء للمدينة لا يقوم على معطيات الجنس [الإثنية] أو الانتساب إلى قومية معينة الدولة القومية، وهذا ما تقوم عليه المواطنة الحديثة التي تسلم بثبات واحد هو الولاء للوطن فقط، وإنما يقوم على الغايات الأخلاقية التي نجسدها في أفعالنا.

فالمواطنة عند أوغسطين من الناحية الزمنية لا تؤسس على الحاضر أو بصيغة أوضح ليس كل من ينتسب إلى مدينة معينة هو عضو فيها، لأن المجرمين هم أيضا أعضاء في المدينة الأرضية مع المؤمنين، ولكنه ينظر إلى المستقبل، وعلى التجسيد الفعلي، والعمل للقيم، وليس على الشعارات.

ومدينة الله التي (قوامها جماعة الأخيار) هي النموذج الفعلي لهذه المواطنة، فهي على حدّ تعبير ليو شتراوس* (Leo Strauss) لا تكون فقط من أتباع المسيح، والعابدن للإله الحقيقي، إنها تكون من أناس إلهيين، وقد توصف حياتها كلها بأنها حياة الإذعان للورع لعالم الله، وتوجد فيها، وفيها فقط العدالة الحقيقية.⁽¹⁾

وهي نوعين عدالة المدن الأرضية التي تقوم على مبدأ المواطنة بالعرف الروماني، والتي يعتمد فيها أوغسطين على فلسفة شيشرون⁽²⁾ التي تعامل معها في بداية بحثه بالأسلوب النقدي الموضوعي، حيث نجده في الفصل 21 من الكتاب 19 من الكتاب، يكشف عن التناقض الذي وقع فيه شيشرون عندما عرّف الجمهورية بأنها الشيء العام، فيقول أوغسطين إذا افترضنا أن هذا التعريف صحيح، فهذا يعني أن الحكومة الرومانية لم تكن يوما ما شيء الشعب، والعدالة في المجتمع المدني الروماني كانت دوما غائبة، وهذا النقد لم يأخذ أوغسطين إلى التحامل على شيشرون، بل نجده يشيد بالإيمان الذي كان يوليه للقانون، وبنظرته اليقينية للحياة الإنسانية المتمدينة، التي لم يتصور قيامها بدون قانون لكونه، وتصوره للدولة على أنها (جماعة القانون).

(1) تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول، المرجع نفسه، ص: 288

*ليو شتراوس: 1973/1899 فيلسوف الماني. اهتم بالدراسات السياسية، ومنها المدينة والإنسان، تاريخ الفلسفة السياسية.

(2) شيشرون: ولد في 106 ق،م، درس القانون في روما والفلسفة في أثينا، كان مستشارا للدولة في 63 ق،م، آمن بالاعتدال السياسي وبالنظام الدستوري وبالحكومة المختلطة واعتبرها سر عظمة روما.

وفكرة خضوع الدولة لقانون الله أو القانون الأعلى الذي يعلو على التصرفات البشرية، وفكرة استعمال القوة لحاجة الدولة في تحقيق العدل والحق،⁽¹⁾ التي قال بها شيشرون، كانت قاعدة اعتمد عليها القديس أوغسطين في الخروج من مأزق الحكم بفساد المدن الأرضية، فليست جميع المدن الأرضية فاقدة للشرعية أو مدنا فاسدة، أما العدالة الحقيقية فهي عدالة الله، فالمدن الأرضية ليست كاملة، وكل حاضرة أرضية، تفتق مع تصور شيشرون تحتوي على خصائص حاضرة الله، وإن كان يفترض عمليا أن كل مجتمع منظم وفقا لقانون وضعي، هو دولة سياسية.

والقراءة الأولية لنموذجي المدينة مدينة الله و المدينة الأرضية توحى بالانفصال والمفارقة، بينهما ولكن القديس أوغسطين يقدم مشروعا سياسيا يُخَفِّف من حدة التعارض الموجود بين النزعتين الرغبة في الحياة والسعادة الدنيوية، والخوف من المجهول (العالم الآخر)، فمدينة الله لا تبطل الحاجة إلى المجتمع المدني، بل تكمله، فالمواطن الإلهي هو مواطن في مدينة أرضية، ولكن أخلاقه إلهية⁽²⁾، فالغرض والغاية من الخلق هو تجسيد القيم الأخلاقية العليا التي يكون الله هو النموذج الأول لها، وعيسى المسيح سلام الله عليه.

العضوية في مدينة الله تحقق السلام والسكينة للمواطن "إنه يمكن للمرء من حيث إنه عضو من أعضاء مدينة الله، فقط، وعن طريق علاقته بنظام يتجاوز المجال السياسي أن يحقق السلام والسعادة اللذين يطمح إليهما كل الناس، حتى الأشرار"⁽³⁾

والعضوية أو المواطنة في مدينة الله لا تلغي المواطنة في مجتمع دنيوي مؤقت، وإنما تحافظ عليها وتكملها فالمدينة الإلهية هي مدينة القيم، ومن خلالها معرفة قيم هذه المدينة يتسنى لنا معرفة صفات المواطن النموذجي العالمي - بحكم أن المسيحية عالمية - الذي تسعى ثقافة العولمة للترويج له.

فالمواطنة عند أوغسطين تلتقي مع نموذج المواطن الذي نادى بها الفلسفة الرواقية، فالمواطن العالمي **Cosmopolite** يشبه إلى حد بعيد المواطن المسيحي **Oranopolite** الذي أقرته المسيحية، فالإنسان بالمنظور الرواقي هو عضوا في مجموعة عريضة ذات أبعاد كونية، فحاضرة أو

(1) إبراهيم درويش النظرية السياسية في العصر الذهبي، دار النهضة العربية، مصر 1973 ص 199 (د.ط)

(2) نجد هذا المعنى في بعض الأحاديث النبوية حينما يقول الرسول محمد (ص): ((تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ))

(3) pp192، 1994، Paris، Édition du seuil، La cite de dieu، Saint Augustin

مدينة الحكيم هي Cosmos؛ ومن هنا ظهر مفهوم الحضرة العالمية (Cosmopolis) أو مدينة العالم.

فلاشتراك بين البشر في السخية أو الجبلة هو الذي يشعر الجميع بالمشابهة والمساواة، والعالم يسير أصلا وفقا لمبدأ اللوجوس الكوني، فهو نظام واتساق بالأصالة ولا يتضمن أي تفاوت أو حيف؛ أما الانتماء إلى شريحة أو إثنية معينة فهو يورث التصادم القائم على الأناية الفردية أو الأناية الجماعية، والمواطنة المسيحية تنطلق من كونية القيم الأخلاقية ووحدتها الإنسانية، فالفضاء السياسي للمواطنة الأوغسطينية قائم على الأخلاق، فسعادة المواطن والسلام والطمأنينة يكمن في تجسيده للقيم الأخلاقية المرتبطة بالقانون الإلهي.

أما المواطنة العالمية التي تدعو إليها الرواقية فهي متعالية ومجردة عن المكان يقول سينيكا في [الرسائل الأخلاقية إلى لوكليوس]: "في أي مكان متوحش من أركان البسيطة وجدت نفسك، فهذا المكان مهما كان موحشا فهو مقام كريم، أنت نفسك أهم بكثير من أي مكان تأتي إليه ولهذا السبب يجب ألا تسمح لأي مكان باستعباد عقلك؛ عش مؤمنا بهذه الفكرة: إني لم أولد لأي جزء من هذا الكون، فهذا العالم كله وطني.."⁽¹⁾

من هنا تبدو المقاربة بين الفكر الرواقي والفكر المسيحي في شمولية وعالمية المبدأ وإن كان الاختلاف ليس إلا شكليا [البعد الديني الإلهي]، فالقانون الأخلاقي عند الرواقية هو قانون الوجود، والوجود هو الحياة، والحياة هي ممارسة الوظائف بطريقة طبيعية سوية، فليست السعادة سوى شعورنا بأننا لا نمارس وظائفنا في انسجام تام... والإنسان حين يريد حياته، إنما يريد سعادته، وهو حين يريد سعادته، فهو إنما يريد أن يجيء كل شيء مطابقا لقانون الطبيعة"⁽²⁾.

فعالم المواطن المسيحي وعالم المواطن الرواقي واحد مادام القانون أو لوجوس الوجود واحدا ألا وهو الله وما نرغب في بيانه هو اكتشاف القيم الأخلاقية الظاهرة والمستترة في طيات كتاب مدينة الله.

ومن هذه القيم.. الحب، فالولاء للسلطة من طرف المواطن سواء كانت سلطة الله مدينة الله أو الولاء لسلطة المدينة الأرضية ينطلق من الحب، فالارتباط العاطفي بين المواطن والحاكم

(1) جلال الدين سعيد، فلسفة الرواق، مركز النشر الجامعي، تونس 1999 ص: 133 (د.ط)

(2) زكريا إبراهيم، المشكلة الخلقية، مكتبة مصر، مصر، الطبعة الأولى 1969 ص: 135

يمنح الشرعية والمشروعية للسلطة، ويحفز المواطن على الفناء في المحبوب مهما كان موضوع الحب، فالحب مبدأ تبني عليه السلطة وليس فقط رابطة بين المواطن والسلطة. ونستشف هذا التصور في ما يقوله القديس أوغسطين: "حبان صنعا مدينتين، حب الذات حتى احتقار الله صنع المدينة الأرضية، وحب الله حتى احتقار الذات صنعا المدينة الإلهية.. فالأولى تبحث عن المجد لدى الناس، في حين أنه بالنسبة للثانية فإن الله هو شاهد على ضميرها، وهو مبدأ نغرها." (1).

فالحب ليس نجسا في طبيعته بل بالعرض، إذ يصبح أخلاقيا وضروريا إذا كان متعلق الحب موضوعيا وأخلاقيا، فتقديم الغير على الذات هو حب للإنسان وليس نكرانا للذات، يقول القديس أوغسطين: ".. نرى زعماءها - زعماء مدينة الله - الموجهين يندرون أنفسهم للمحبة..". فالمواطن المسيحي إذن يؤمن في داخله أنه مدعو لأن يكون فردا أو عنصرا في مجتمع أكثر اتساعا من المجتمع البشري الذي ينتمي إليه بالفعل، وهذا المجتمع هو مجتمع العدل أو الأشخاص العادلين الذين يتمتعون بسعادة أبدية، والذين يتألف منهم ملكوت السموات أو مدينة الله، والقيم الأخلاقية التي تبني عليها المواطنة، هي العمل وفق القانون (القاعدة الإلهية) فالأخلاقي ليس ما يُقرره المجتمع أو الفرد أو الدولة بل الله هو الذي يمنح المشروعية الأخلاقية للفعل، فتحديد القيم وتأسيسها يخضع لمقياس القرب أو الابتعاد عن الله. ونعتقد أن إشكالية أساس القيم الأخلاقية التي احتدم الصراع والجدل الكلامي حولها في جميع الثقافات، خصوصا الذين يعتقدون بنقلية أو سمعية القيم يجدون عند القديس أوغسطين الكثير من الحجج.

يقول: "الفضائل التي تعتقد النفس بامتلاكها وبفضلها تسيطر على الجسد وعلى الرذائل، هذه الفضائل هي في الواقع رذائل إذا ما ابتعدت النفس عن الله، ففي الواقع هي فضائل بحد ذاتها، إلا أن الغرور الذي يصيب النفس بابتعادها عن الله يحولها من فضائل إلى رذائل..". ومن بين الفضائل الأخلاقية فضيلة السلام القيمة التي يطلبها المواطن في المدينة ومن المجتمع المدني تقوم على نوعية وشكل العلاقة مع الله. "تعييس هو الشعب الذي يبتعد عن الله؛ فهو يحب السلام ولا مجال لرفضه، لكن هذا الشعب لا يملك السلام النهائي لأنه أساء استعمال هذا السلام... أما بالنسبة لسلامنا نحن على الأرض مع الله بالإيمان، وسيصبح في الأبدية معه بالرؤيا..".

(1) Saint augustin ;la cite de dieu . Édition du seuil. Paris. 1994.p191

ويمكن القول أن القديس أوغسطين يستحق عن جدارة أن يصنّف ضمن آباء الكنيسة، فعن طريقه انتقل الفكر القديم إلى العصور الوسطى، و كانت كتاباته منبعاً زاخراً من الفكر نهل منه فيما بعد الكتاب الكاثوليكين والبروتستانت⁽¹⁾.

والغريب في الأمر أن كتابات هذا المفكر وُظفت في عدة أوجه متباينة، فمنهم من يصنّفه ضمن أعمدة الفكر المسيحي ومنهم من يعتبره منظراً للاضطهاد، وهذه الدلالات المتغايرة عبر عنها الأستاذ توفيق الطويل بقوله: "ومن كتاباته في البر والتقوى، والقضاء والقدرة والأعمال الخيرية وغيرها، استمد البروتستانت أعظم أسلحتهم قوة وصلابة، وفي تزمته النظري عرف المذهب الكاثوليكي أخصّ مميزاتة، وقد أخفى المتزمتون من أتباعهما تعصبهم وراء اسم هذا القديس العظيم.."⁽²⁾

(1) جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الجزء الثاني، ترجمة: حسن جلال العروسي، دار المعارف، مصر 1969

ص: 275 د. ط)

(2) توفيق الطويل، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة

الأولى 1991 ص: 71